الفصل الثامن

تكيف الجديد مع الحاضر والقديم :

بعد عرض الأدوار المختلفة للتربية الفنية فى مصر داخل المنهج العام للتعليم · نشير هنا الى أن هذه الأدوار نشأت أصلا وتتابعت مع ما نشأ وتتابع فى الغرب فى أوربا وأمريكا · فقد أنشىء نظام تعليم الفنون على غرار الأكاديمية الفرنسية · وعلى هذا فعندما نزحت الثقافة الغربية الى مصر متمثله فى نظم للتعليم ثم استعارتها كما استعيرت نظم فى الفكر والحياة نقلت بدورها فلسفة الحضارة الغربية التى كان ولا يزال للفكر اليونانى أثر كبير على تشكيلها والذى لا يزال يعد المنهج الفكرى والمثل الأعلى Ideal الذى يحتذى · وقد تمثل هذا فى الفن تلك المنحوتات للجسم الانسانى التى ظلت حتى الآن ترمز الى المثل الأعلى للتكامل الانسانى فى نظر الغرب · ان ثقافة الاغريق مازال تأثيرها يعمل حتى اليوم فى تشكيل وبناء التقاليد الفنية الأوربية وان خفت حدتها فى السنين الأخيرة · لقد ظل هذا التأثير بكامل قوته مشكلا ثقافة الغرب سنين طويلة حتى أصبحت الثقافة الغربية تصر وتؤمن بوجهة نظر الأغريق الجمالية فى الفن واعتبر أى نوع من أنواع الفن خارج هذه النظرة الجمالية ما هو الا فن ناقص لا يرقى الى مستواها ، وهنا كان لابد وأن يحدث شىء اذ كان على الفنانين أنفسهم أن يكتشفوا قوانين ومثاليات تلك الفنون الأخرى المرفوضة من وجهة نظر الثقافة الغربية · كان هذا الاكتشاف لابد وان يتم على يد جوجان gauguin والوحوش Fauvism والتعبيريين Expressionism والتكعبيين Cubism والسرياليين Surrealism فقد قام كل هؤلاء باستعارات واضحة وجلية من الفنون الأفريقية البولانيزيه تلك الفنون

التى كانت فى نظر الثقافة الغربية فنونا ناقصة وغير مكتملة ولقد تحـول الفنانون الى هذه الفنون لما أصاب الفن الغربى تحت تأثير الفكر اليونانى ووصوله الى مرحلة من الجمود · فقد نبضت الأفكار وبات فنا تقليدا رتيبا متعصبا لنظام معين فى الرؤية تجلت فيها أسس وقواعد متزمتة صارمة حجبت الرؤية عما حولها من الفنون الأخرى · هذا التحول وكسر الجمـود ـ يظهران فيما قامت به الحركة الرومانتيكية فى القرن التاسع عشر لتطلعها الى الشرق وقيام الواقعية واستلهامهم من الفنون الهولاندية والأسبانية وانطلاق التأثيريين للاستفادة أيضا من الطباعة اليابانية ·

هذه الاستعارات المختلفة من فنون خارج نطاق الفكر اليونانى قد خضعت فى البداية الى الفنانين وقدرتهم على النقل من الثقافات المختلفة وفى نفس الوقت على ادماج ما نقلوه ليتعايش مع الثقافة القائمـة ، تم تدريجيا السيطرة على أصحاب تلك الثقافة القائمة وجعل كل جديد نازح أو مستورد أو دخيل عليهم يتأقلم مع أحاسيسهم تدريجيا خطـوة خطـوة حتى يندمج داخل الثقافة الغربية تماما ·

عندما تقبل ثقافة ما أشكال جديدة من ثقافة أو ثقافات أخرى تحتاج الى فترة كما ذكرنا سابقا حتى يندمج ذلك الجديد النازح ويتعايش مع الموجود والقائم بالفعل فى تلك الثقافة ، ففى الغرب مثلا ومن خلال تأثير النظرة الجمالية للأغريق فى الفن ظلت فنون الأطفال ينظر اليها على أنها نوع من العبث وأنها ليست فنونا لما فيها من أخطاء · كما أنه اذا حدث ووجد أطفال ينتجون فنا صحيحا من وجهة نظر الكبار قوبل ذلك على أنه قد جاء بالصدفة وأنه ليس الا حالة شاذة فكان المعروف والمتعارف عليه فى ذلك الوقت أن كل ما يصوره الأطفال انما يكون عبثا · تلك النظرة وذلك التفسير لانتاج الأطفـال انما كان ينطلق من خـلال تأثير الثقافة اليونانية ومن خـلال ذلك القانون الذى يعتمد على النسب الجمـالية

والأبعاد وبالقدسية الأكاديمية ومبادئها ، الى أن جاء العديد من العلماء أمثال Jean ، Rousseau ، Pestalozzi بأبحاثهم عن الأطفال ومن أتى بعدهم أيضا من السيكلوجين أمثال Freud و Wallen ، Pieget ومحاولاتهم فى الكشف عن أعماق جديدة فى النمو العقلى للأطفال وخصائصهم وعالمهم الخاص بهم · ومع كل ما كتب وقيل عن الأطفال ظلت فكرة الكبار وتمركزها فى تفسير أعمال الأطفال كما هى · فكل ما كان يفسر عما ينتجه الأطفال يترجم من زاوية فكر الكبار · وهنا ثانية تتفتح عيوننا ونتواضع وتتقبل برضاء فنون الأطفال · تتفتح عيوننا بواسطة الفنانين الحديثين أمثال Klee و Ernest و Miro على القيم الحقيقية لفنون الأطفال فتحولت الأحاسيس والمعايير لرؤية الجمال فى فنون الأطفال تماما كما حدث بما فعله الفنانون مما سبقهم من تغيير وافساح مكان للفنون الأخرى لكى تندمج فى ثقافة الغرب الفنية ويرضى عنها أيضا ذوق الغرب الجمالى ولقد بدأت فنون الأطفال فى الظهور واليوم قد أصبح من المألوف أن تنظم للأطفال معارض خاصة لهم تحت عنوان « الطفل المبتكر » وهو الذى كان ينظر اليه فى القرن التاسع عشر على أنه رجل صغير كل ما ينتجه ما هو الا عبث وغير صحيح وبالتمرين والتدريب يستطيع ان يصل الى ما قد وصل اليه الكبار · ان فن الطفل اليوم قد وصل الى أن أصبح مألوفا وذا شرعية فى الوجود داخل ثقافة الغرب وثقافات أخرى وأصبح يتسع ذلك الوجود يوما بعد يوم ويسعى للوصول بالطفل الى مستوى أعلى · وهكذا بعد عشرات من السنين أدرك الأطفال أن لديهم قيمة فيما ينتجونه وهم بذكائهم قادرون على الحفاظ عليها بارضاء الكبار وأن يتعلموا ما يحبه هؤلاء الكبار · ولا عجب فانه بمقارنة فن الطفل اليوم بما كان عليه منذ خمسين عاما مضت لعرفنا أنه قد أصبح يعد فى اطار الفنون الاكاديمية بما قد وصل اليه من ثبات فيما يراه ويعتقده الكبار فيه لا ما يراه الأطفال أنفسهم فى فنهم ·

من استعراضنا لتأثير فلسفة الاغريق الجمالية على الثقافة الغربية، وكيف كان على فناني الثقافة الغربية أنفسهم مهمة تحول هذه الفلسفة وادراك الجمال في الفنون الأخرى · ذلك التحول في الحس الجمالي للغرب لم يأت من يوم وليلة وانما بما استطاعه فنانوا الغـــرب من أدماج ما تم استعارته من ثقافات أخرى من وحدات وأشكال الى صميم الثقافة الغربية ليس هذا فقط وانما استطاعوا أيضا أن يحولوا أحاسيس حاملي هـذه الثقافة لتقبل هذا الجديد النازح واعطائه شرعية البقاء داخل الثقافة ·

واذا كانت الثقافة الغربية قد نزحت الينا فانها قد جلبت لنا معها أيضا تأثير الفلسفة الاغريقية الجمالية التي كان من شأنها الطغيان على تحول الحسي الجمالي وتقبل أشياء بعينها على أننا نستطيع أن نقول بأن تأثير هذه الفلسفة لم يمتد الى أعماق الثقافة المصرية المتمثلة في البيئات الشعبية وكما سبق وذكرنا أنه في هذه الاحياء لا يسلم أي منتج دخيل من ثقافة أخرى أو أي فكرة نازحة من خارج الوطن الا وقد لمستها الثقافة الشعبية ·

أن تكيف الجديد النازح مع القائم والقديم الراسخ يوضح ظاهرة فريدة في حياة الثقافة في مصر ـ والمعروف أن مصر قد تعرضت خـلال تاريخهـــا الطـــويل للعديد من الأفكار والموضوعات والأشـــكال التي نزحت اليهـــا من الثقافات العـــديدة · كل هـــذه الأشـــكال الأجنبية والغربية على ثقافتها قد اندمجت وانصهرت داخل الثقافة المصرية · هذه الأفكار والموضوعات والأشكال لا تنطلق مباشرة داخل الثقافة المصرية بيسر وانما تحتاج الى وقت حتى تألفها الثقافة ويألفها الناس يتحسسونها فيأنسوها وهم في استئناسهم لها لابد وأن تفقد بعضا من صفاتها الأصلية ثم بعد ذلك يفسح مكان لها فتستقر بعد ذلك في الثقافة القائمة فتنطبع بطابع مصر وفي النهاية فانها تجد طريقها للانصهار والاندماج داخـــل

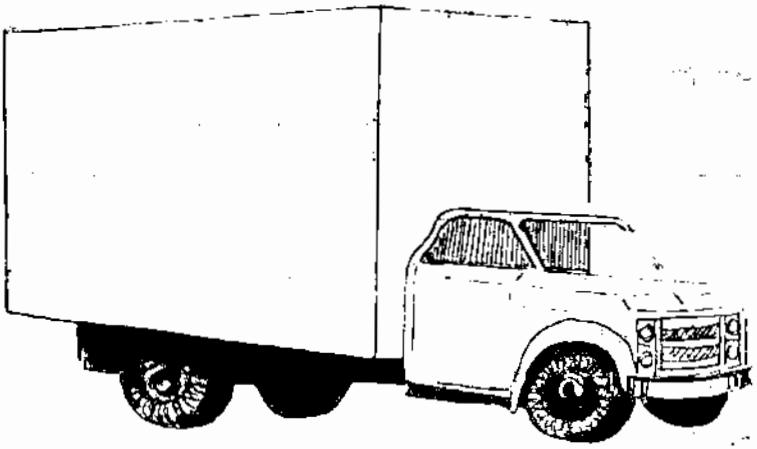

(شكل ٣٥) أعطى لكل طالب صورة لهذا الرسم
على أن يقوم بعمل شارة وتصميمها على شكل العربة ٠

الثقافة المصرية ٠ ويتجلى هذا فيما يضيفه الفنان الشعبى من لمسات لكل منتج نازح من الخارج فما نراه من زخارف على سيارات النقل الخاصة وسيارات الأجـرة من زخارف وكتابات ومعلقـات ٠ زخارف يرتبط الكثير منها وينبع من التراث الفنى المصرى القديم والقبطى والاسلامى والشعبى٠ وكتابات تحمل فى معناها حفظ السيارة من الحسد وحماية صاحبها من الشر والخطر وجلب الحظ والخير له ٠ كمـا انهـا فى كثير من الأحيان تحمل هذه السيارة اسما فيطلق عليها اسـما آدميا ٠ ومعلقات ترتبط بتاريخ مصر وما خلفه لنا الأجداد ، هـذه المعلقات تمتد جذورها الى التمائم المصرية القديمة ٠ تعلق حماية للسيارة وسائقها ومن يركبها ٠

تصميم علامة تجـارية :

هذه الرموز من نقوش وكتابات ومعلقات انما تحمـل فى طياتها انتقال لأشكال الثقافة ٠ ولقد قام الكاتب بسؤال طلاب الفرقتين الاعدادية والرابعة بكلية التربية الفنية ـ جامعة حلوان بعمل تصميم شارة أو علامة تجارية لشركة لنقل الأثاث بعد اعطاء كل منهم رسما لشكل عربة هـذه الشركة (شكل ٣٥) ٠وكان الافتراض وراء ذلك السؤال هو أن الطلبة سوف

يعكسون فى تصميمهملهذا الشعار وما يحيطه من زخارف ووحدات وكتابات تأثير الثقافة وأشكالها المرئية · بعد أن قام الطلاب بتصمم شاراتهم على شكل السيارة وبعد تحليل انتاجهم اتضح أن رؤيتهم قد تأثرت فعـــلا بما تحتويه الثقافة الفنية فى مصر من أشكال ترتبط كل منها بمنابع معينة مثل الفن المصرى القديم ، والقبطى ، والاسلامى ، والشعبى، وفنون الاعلان والفن الحديث · لقد اتضح تأثير هذه المنابع الفنية فى انتاج الطلاب · وكانت الوحدات المستمدة من منابع الفن الاسلامى تمثل نسبة كبيرة من طلاب الفرقة الاعدادية وكانت تعادل ٦٠٪ بينما كانت ٣٨٪ من طـلاب الفرقة الرابعة · كما تفوق أيضا طلاب الفرقة الاعدادية فى أستخدامهم للوحدات المستمدة من الفنون الاعلامية تلك الفنون التى تمثل فى السينما والتليفزيون والمجلات والملصقات الاعلانية المختلفة فكان استخدامهم لهذه الوحدات بنسبة ٦٣٪ بينما كانت لدى طلاب الفرقة الرابعة ٤٦٪ ثم تأتى بعد ذلك الوحدات المستمدة من الفن الشعبى فيتفوق فى استخدامها طلاب الفرقة الاعدادية حيث كانت نسبة استخدامهم لهذه الوحدات تعادل ٤٠٪ بينما كانت بين طلاب الفرقة الرابعة ٣٥٪ (شكل ١٣٦ أ ، ب) ·

ولعله من الواضح أن كلا من طلاب الفرقة الاعدادية وطلاب الفرقة الرابعة قد تناولوا وحدات من التراث الفنى المصرى الذى أشرنا اليه والى متابعة المتعددة ولم يترك أى منبع من هذه المنابع الا وقد أستعيرت منه وحدات متنوعة تلك الوحدات التى ظهرت فى تحليلنا للنتائج ، كانت هذه الوحدات المستمدة من التراث الفنى فى مصر تتفاوت من منبع الى آخـر فبينما كانت نسبتها تتزايد من المنبع الاسلامى عند طلاب الفرقة الاعدادية حيث وصلت الى ٦٠٪ انخفضت الى ٣٨٪ عند طلاب الفرقة الرابعة · أما الوحدات التى استخدمت فى الفن الحديث فكانت تمثل أعلى نسبة فى

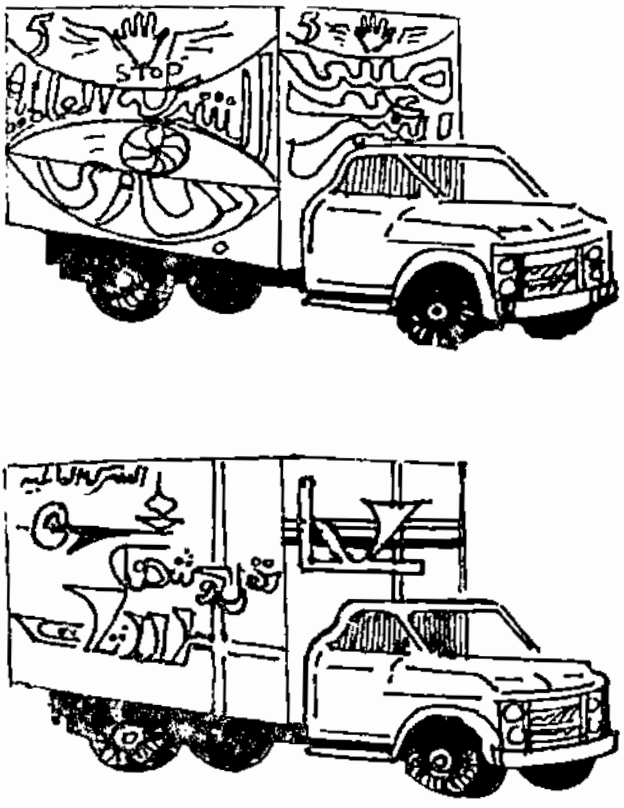

(ب) (أ)

(شكل ١٣٦ ، ب) تصميم شارة لسيارة
النقل من عمـــل طلاب الفـرقة الرابعـة

الاستخدام بين طلاب الفرقة الرابعة حيث كانت ٤٣٪ وانخفضت هذه النسبة الى ٢٣٪ بين طلاب الفرقة الاعدادية (شكل ٣٧) ٠

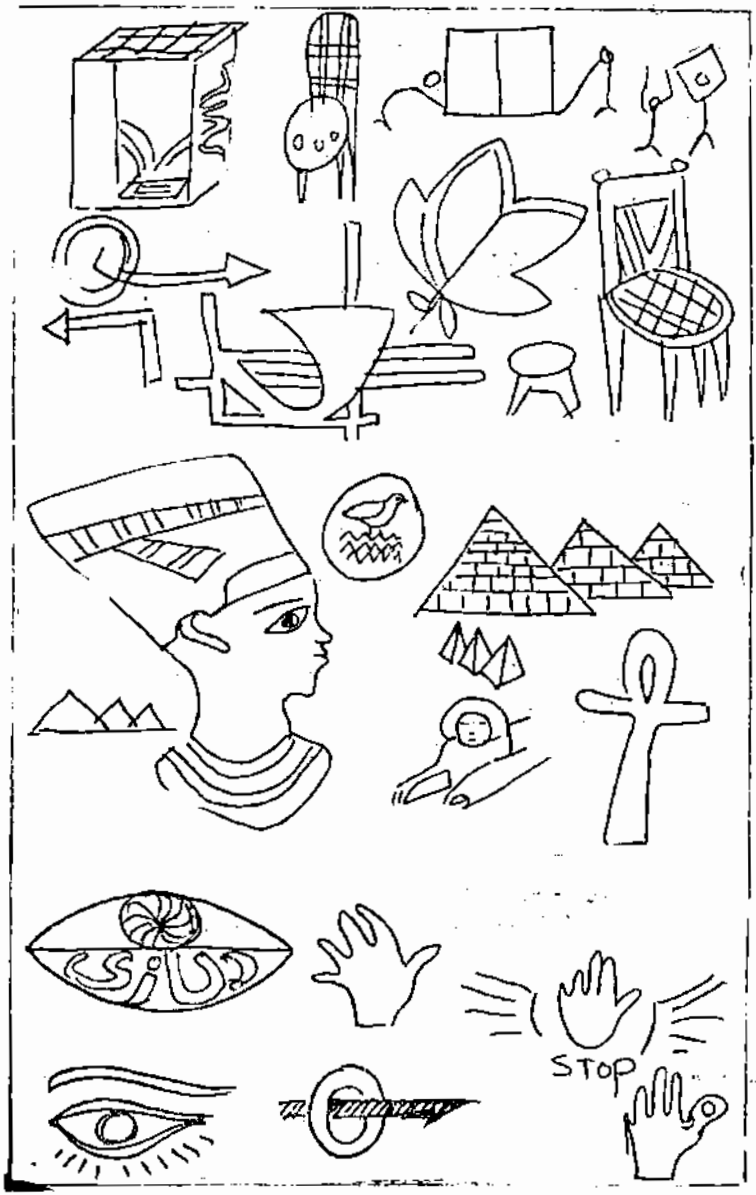

(شكل ٣٧) وحـدات مستمدة من مصـادر فنيه متنوعة
كما اسـتخدمها الطلاب فى تصـميماتهم لسـيارة النقل

اثر الثقافة والتعليم على الرؤية :

وعلى هذا فان أعلى استخدام لوحدات كانت مستمدة من الفن الاسلامى ظهرت بين طلاب الفرقة الاعدادية ٠ وفى نفس الوقت كانت أعلى نسبة فى استخدام وحـــدات مستمدة من الفن الحديث ظهرت بين طـــلاب الفرقة الرابعة ٠ وهذا يدل دلالة واضحة على تأثير الثقافة على طـلاب الفرقة الاعدادية متمثلة فى تلك الاستعارات من الفن الاسلامى بينما ظهر تأثير التعليم داخل الكلية على طلبة السنة الرابعـــة ٠ وذلك فى استخدامهم لوحدات كانت مستمدة من الفن الحديث ٠ ويمثل ذلك الاستخدام ســواء لوحدات مستمدة من الفن الاسلامى أو لوحدات مستمدة من الفن الحديث بين طـلاب الفرقة الاعدادية والرابعـة حقيقة تؤكد أن كلا من المصـدرين الاسلامى والحديث يمثلان الواقع الحالى الذى يعيشه كل من الفرقتين ، فطلبة الفرقة الاعدادية كان تعبيرهم مستمدا ونابعا من أشـــكال الثقافة المحيطة بهم ، والتى تتجلى فى الزخارف الاسلامية الموجودة على واجهات المساجد والمآذن والقباب ٠ وغيرها من الزخارف التى تراها العين ، هذا الى أن المنابع الحديثة أصبحت من الأمور التى تزاحم من ناحيـة أخرى وتدعو العين لرؤيتها ٠ فالمعروف أن نظام الدراسة بالكلية قد أسس على النظام الغربى بل وأنه يتطابق تماما مع برامج تعليم التربية الفنية هناك والفرق الوحيد يتمثل فى الأرضية الثقافية الى جانب البيئـــة ونوعهـــا وطبيعتها ، وعلى هذا فان الفرصة متاحة لطلبة الفرقة الرابعة الذين قد مضى على وجودهم بالكلية أكثر من ثلاث سنوات أن يتعرضوا الى رؤية منابع جديدة فى أشكال الفن تتمثل فيما يرونه من مدارس حديثة الى جانب ما يملى عليهم من قواعد وأســـاليب فى تدريس الفن يستند معظمه الى الفكر الغربى الأوربى والأمريكى ٠

ومما يؤكد هـذا الرأى أيضـا تلك النسبة العالية فى الاستخدام لوحدات مستمدة من المنابع أو الفنون الاعلامية بين طلاب الفرقة الاعدادية

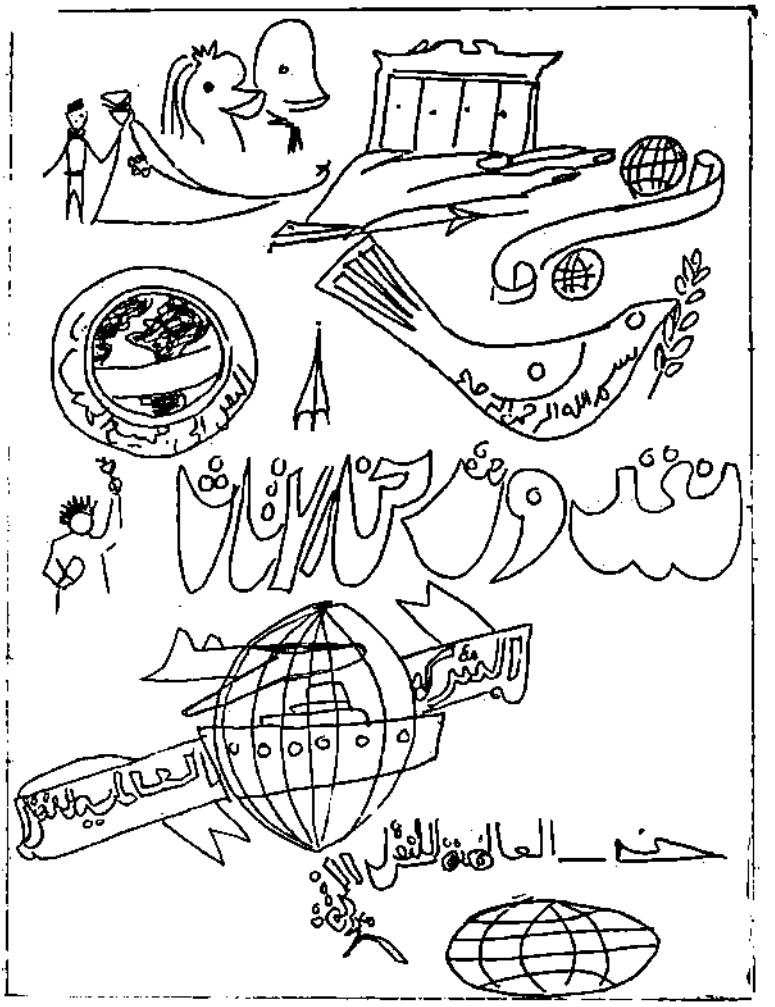

(شكل ٣٨) وحدات مستمدة من فنون الاعـلام كما استخدمها الطـلاب فى تصميماتهم لسـيارة النقـل

والتى أشرنا اليها على أنها فنون الاعلام والسينما والتلفزيون والملصقات والمجلات وغيرها . ولقد استعار طلاب الفرقة الاعدادية العديد من الوحدات

التى يشـــاهدونها على شاشات التليفزيون أو المجـــلات أو على واجهات المحلات أو حتى ما قد يزخرف هياكل السيارات (شكل ٣٨) هذه الوحدات تستطيع تصنيفها الى وحدات مستمدة من رموز عالميـــة الى جانب رموز محلية ، وتتمثل هذه الرموز العالمية فى تلك الوحدات التى تمثل غصن الزيتون والحمامه ، أو عجلة الصناعة ، أو رسم الكرة الأرضية أما الرموز المحلية فتتمثل فى الوحدات التى تمثل أشكال نبعت من مصر مثل تمثال نهضة مصر ٠ الذى استعارته شركات عديدة رمزا وعلامة تجارية لها وأصبح انتشاره متداولا مألوفا لأعين الكثيرين ، أو منـــارة الاسكندرية وغيرها ٠ الا أننـــا نستطيع أن نقول أن تلك الرموز العالمية والمحلية انما تمثل نوعا من التكرار أو أشكالا نمطية لا تتغير تراها العين ولا تدرى ما مصدرها أو منبعها فهى من كثرة تداولها أصبحت نوعا من القوالب أو هى كالقالب Sterotyped الذى الفته العين هذه الرموز كما ذكرنا بعضها نابع من مصر والبعض الآخر قد وفد الى الثقافة المصرية واندمج وعاش فيها (شكل ٣٩ أ ـ ب) ٠

والحقيقة التى تستدعى الانتباه هنا هى أن كلا من طلاب الفرقتين قد تقاربوا الى حد ما فى استخدامهم للوحدات المستمدة من الفنون الشعبية وهذا انما يؤكد مدى ما لهـــذه الفنون من تأثير على رؤيتهم لأشـــكال السيارات ويؤكد أيضا ما أشرنا وما ســـوف نشير اليه من أن الثقافة القائمة والراسخة انما تجد لها مكانا بتلك اللمسات التى يضيفها الفنان الشعبى الى كل جديد نازح ودخيل على تلك الثقافة القائمة والراسخة ٠

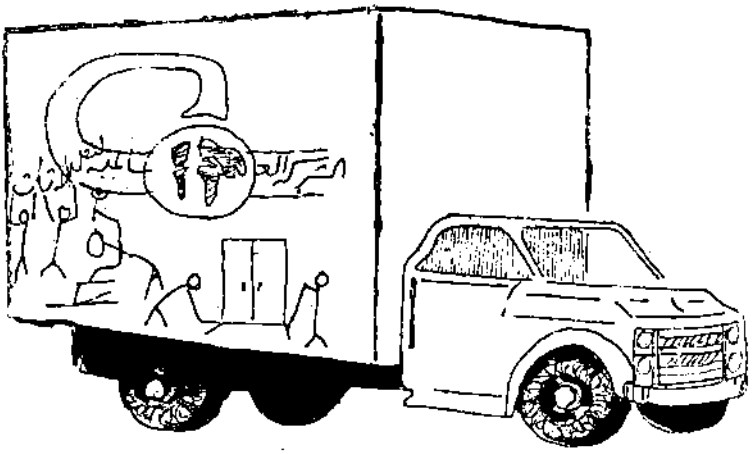

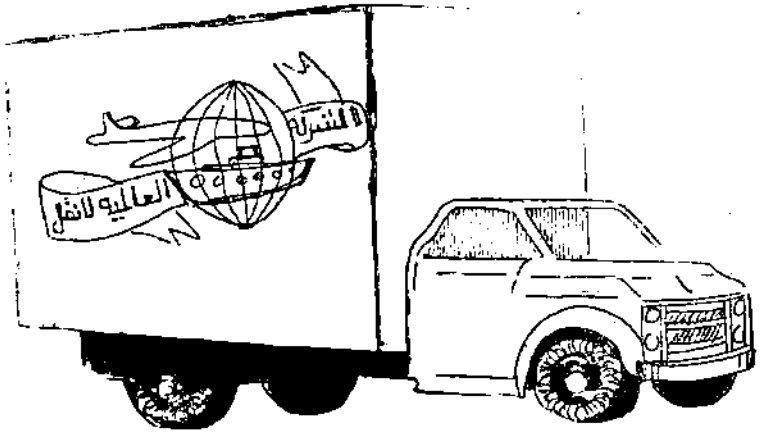

(شكل ٣٩ أ ، ب) وحدات أشكالها متداول ومنتشرة عالميا تألفها العين لكثرة تداولها قام برسمها الطلاب فى تصميمهم لسيارة النقل .

ان تقبل الجديد من أشكال وأفكار وادماجه فى القائم والراسخ لا يتأتى باضافة أشكال ووحدات مستمدة من التراث الفنى على مراحل تاريخه المختلفة ، ولا يقتصر ظهور ذلك فى زخرفة الجديد بوحدات مستمدة من القديم فقط وانما يتضح أيضا فى كثير من الأحيان عندما يطلق على هذا الجديد اسماء تنتمى الى الثقافة القائمة · فلقد لوحظ أن الطلاب سواء فى الفرقة الاعدادية أو الرابعة قد أعطوا اسماء آدمية اما مذكرة أو مؤنثة بكتابتها على « الكابينه » الأمامية للسيارة وهم فى كتابتهم لها انما يعكسون ما يرونه فى الواقع وخاصة ما يكتب على سيارات النقل الخاصة وكذلك سيارات الأجرة المنتشرة فى أقاليم مصر · ولدينا أمثلة عديدة من التاريخ تؤكد صدق هذا · فلكى يندمج الجديد الغريب والنازح فى الثقافة القائمة لابد له أن يصبح مصريا اما بالاسم أو أن يجد طريقة أخرى تجعله ينتمى الى الناس فيصبح قريبا لها · فالاسكندر الأكبر مثلا عندما أتى الى مصر قام كهنة آمون باصدار وثيقة يعلنون فيها أن الاسكندر الأكبر ليس غريبا على مصر وانما تربطه صلات جمعت بين أمه والاله آمون ، وعلى هذا فقد سهلت مهمة اختراقه وانطلاقه الى قلوب ساكنى مصر فتطالعنا صورة على جدران المعابد المصرية القديمة بأزياء الفراعنة وكأنه واحد منهم ، حتى أن نابليون بونابرت عندما جاء الى مصر بحملته المشهورة أصدر منشورات بالعربية يفيد أنه قد أتى لحماية الاسلام والمسلمين · بل مازال لدينا ضريح فى منطقة مصر القديمة قد صمم على طراز العمارة الاسلامية زين من الخارج والداخل ببعض من الآيات القرآنية وهو ضريح (سليمان باشا الفرنساوى) أحد قواد الحملة الفرنسية التى أتت الى مصر فاتخذ الاسلام دينا وأصبح فيما بعد واحدا ممن أعانوا محمد على على بناء الجيش وهو فرنسى الأصل يدعى الكولونيل « سيف » ·

تقبل الجديد من أشكال الثقافة :

تلك الظاهرة الفريدة فى شعب مصر تعـد من الأمور التى تحتاج الى مزيد من الدراسة فهم قادرون بما يحملون من ثقافة ممتدة أن يتقلبوا كل جديد دون خوف أو وجل وحتى يندمج ذلك الجديد وينصهر داخـل ثقافتهم يتناولونه اما باضافة أسماء واما باستئناسه خطوة خطوة حتى يبتلعوه تماما فيندمج فى ثقافتهم ويصبح جزءا منهم · يحضرنى هنا مثال يعكس قدرة المصرى على أن يسمى الأشياء النازحة أسماء تعكس قدرته على الرؤية والتخيل وربط هذه الأسماء بمدركاتها بنوع من التوافق · فبعد حرب العاشر من رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ وأثناء زيارة الكاتب لمعرض لغنائم الحرب · تلك الغنائم التى استولى عليها جنودنا ، وبينما كان أحد الجنود يتولى شرح ما نراه من دبابات ومصفحات استرعى انتباهى اسم اطلقه على احدى الدبابات المصفحة الضخمة ، عالية البنيان وكأنها حصن بذاتها ، اذ اشار اليها وذكر أسمها ، ونوعها ومكان صناعتها ولكنه أضاف الى ذلك بأن الجنود يطلقون عليها اسـم وهو « أبو جاموس » وعندها أدركت تماما مدى الصلة بين هذه الدبابة المصفحة بلونها وضخامتها وذكر الجاموس · أطلق عليها هذا الاسم وانتشر وتداول بين الجنود على الرغم من أنهم أو معظمهم يعلمون تماما مصدر صناعة تلك الدبابة التى أسروها واستولوا عليها ·

نمو العلاقة بين الانسان والجماد :

نعود ونقول بأن طـلاب الفرقتين الاعدادية والرابعة بكلية التربية الفنية قد أضافوا أسماء آدمية وكتبوها على «الكابينة» الأمامية للسيارة عند تصميمهم لها · ان هذه الظاهرة تعكس الى حد ما مدى نمو العلاقة بين الانسان والجماد · فنمو العلاقة بين الانسان والجماد يرتبط الى حد كبير بما يحمله هذا الانسان من تاريخ طويل · فالمعروف أن الانسـان يعيش

محاطا أيضا بمظاهر أخرى عديدة من حيوان ، ونبات ، وجماد · وكما أنه يتصل بكل ما حوله من أفراد جنسه فانه أيضا ينمى الصلة بينه وبين ما يملكه وما يحيطه وما يحتك به من جماد · ذلك الجماد الذى يشاركة حلاوة الحياة ومرارة الأيام أى يلازمه ويقاسمه حياته فى السراء والضراء · هذه العلاقة تنمو وتزدهر وتتأصل كلما زاد عمق الانسان وتاريخه فى أرضه التى يحيا عليها ويصبح ملتصقا بها · ونحن لا ننكر مدى ما يعانيه الانسان حينما ينفصل عن هذا الجماد الذى تعايش معه وأصبح قطعة منه وقطعة من حياته · ويلعب تعلق الانسان بالجماد دوره فى الأفراد كما يلعب دوره أيضا فى الأمم · فلا انسان بلا وطن ولا وطن بلا انسان · والتاريخ يطالعنا بأمثلة عديدة تعكس مدى الصلة والارتباط بين الانسان والجماد وليس غريبا على أحد أن الانسان فى وقت من الأوقات يتخاطب ويتحدث مع ما يملكه من جماد يشاركه الرأى وكانه كائن حى فنتكلم مثلا مع سياراتنا ومع كل ما نملكه حولنا · ولدينا المثل فى الاسلام ذلك المثل الذى يروى كيف تألم جذع النخلة عندما تركه الرسول صلى الله عليه وسلم مستخدما ممبرا فى الخطابة عازفا عن أستخدام ذلك الجذع وكيف أن النبى صلى الله عليه وسلم أحس وسمع انين ذلك الجذع من لوعة فراق النبى له واتخاذه ممبرا آخر يستخدمه عند الخطابة فى المسلمين ·

ولعلنا نسمع عن أناس يقبلون الأرض وبعضهم يحتفظ بحفنه من ترابها وبالمثل ما يفعله البحارة بعد عودتهم لأراضيهم وتعلأ أقدامهم اليابسة بعد غياب طويل عنها يقبلونها وكأنها فتاة أحلامهم · تلك العلاقة بين الانسان والجماد علاقة خالدة تزداد نموا واضطرادا كلما طالت المعايشة · ولعل مصر بأرضها وترابها وماء نيلها جعلت أهلها ملتصقون بها · وعلى هذا التصق الانسان المصرى بأرضه وأزدهرت الحضارة فى مصر واستتب الأمن منذ آلاف السنين · وهناك العديد من القصص والروايات التى تحكى

قوة الارتباط بالأرض ومدى العلاقة الوثيقة بين الانسان والجماد ، حتى انه في سبيل الحفاظ على هذا الجماد يضطره الأمر الى أن يعرض حياته للفناء في سبيل الابقاء على ما يملك من جماد ٠

ويبدو أن الانسان لا يكتسب هويته الا من التصاقه بالأرض فالأرض تعطيه تلك الهوية ولا انسان بدون أرض وكم من شعوب كافحت في سبيل الحصول على هويتها وظلت تتشبث بقطعة من جماد حتى تكتسب بذلك آدميتها وشخصيتها ٠ وعندما يرتبط الانسان بأرضه تصبح قطعة منه وهو قطعة منها يتآلفان ويندمجان وتزداد المودة والعاطفة بينهما ويحتفظ بكل تقاليده معها وكلما طال العمر في سكناها وتوارثها الأبناء من بعد الآباء ارتبطوا بها وازداد تمسكهم بها ٠ والانسان في ارتباطه بما يحيطه من جماد ، ومن أرض ، وزرع وجبال ، وهضاب ، ووديان انما يتعمق في ارتباطه بكل هذا فيصبح جزءا من كيانه لا يستطيع أن ينفصل عنه أو ينساه مهما ابتعد عنه و لايطمئن الا حين يعود اليه ٠

من هذا يتضح انه كلما تعمق الانسان وارتبط ببيئته وبثقافته فانه لا يتقبل الجديد جرعة واحـدة وانما بالوفاء للقديم وبالسـماح للجديد ليتعايش مع ذلك القديم القائم بتمهل ٠ والمثل الشعبى الذى يقول « من فات قديمه تاه » انما يدل دلالة واضحة على عمق الثقافة في مصر ويدعونا ذلك الى أن نسوق مثالا آخر ذلك المثال المشهور عن قصة الغراب الذى لم يرض عن مشيته وأعجب بمشية طائر آخر وصمم على أن يهجر مشيته ويقلد ذلك الطائر الذى أعجبه وكيف أنه في النهاية قد فقد الاثنين معا ، طريقته وطريقة الطائر الآخر فأصبح يمشى على رجليه تارة ويحجل تارة أخرى ٠